الأخبار
al-akhbar
■ رئيس التحرير ـ الصدر الحسنوك: ابراهيم الأمين
■ نائب رئيس التحرير: بيار أبي صعب
■ مدير التحرير: وفيق قانصوه
■ مجلس التحرير: محمد زبيب، حسن عليق، إيلي حنا، أمل الأتحري، شربل كريم
■ صادرة عن شركة أخبار بيروت
■ المكاتب: بيروت ـ فردان ـ شارع دونان ـ سنتر كونكورد ـ الطابق السادس
■ تلفاكس: 01759500، 01759597
■ ص.ب 113/5963
■ الإعلانات: الوكيل الحصري ads@al-akhbar.com 01/759500
■ التوزيع: شركة الأوائل ـ 15 ـ 01/666314، 03 / 828381
■ الموقع الإلكتروني: www.al-akhbar.com
■ صفحات التواصل
/AlakhbarNews
@AlakhbarNews
/alakhbarnews-paper

تأملات في كتابات كريم مروة: راهنية القضايا والعناوين

كمال هاني *

في كتابه «وجوه مضيئة في تاريخنا» الصادر عن دار الفارابي في كانون الثاني 2019، يتوغّل كريم مروة في استعادة أحداث ومواقف وعلاقات وذكريات عاشها أو عايشها على امتداد سبعين عاماً أمضاها في معترك نشاطه الحزبي والسياسي والثقافي. من خلال قراءة شخصية مستقلّة، يسلّط الكتاب الضوء على جوانب مهمّة من تاريخ الحزب الشيوعي اللبناني الذي أتمّ عامه الرابع والتسعين قبل أشهر قليلة. ويوفّر الكتاب ـ الذي تبوّأ صاحبه مواقع حزبية قيادية مؤثّرة على مدى يزيد عن نصف قرن ـ مادة معرفية للشيوعيين واليساريين عموماً، تسمح لهم ليس فقط باستخلاص ما يفيدهم من دروس وعبر من قراءتهم لهذا الاجتهاد التاريخي، بل كذلك بتوظيف هذه الدروس في استكمال النهوض بمسيرة الحزب المستقبلية. وفي معرض هذه القراءة ينبغي الحرص على الاستماع إلى الرأي والرأي الآخر، والإقرار بالحقّ في الاختلاف، طالما بقي هذا الاختلاف محكوماً بحرية المعتقد وبحجج منزّهة عن المقاصد والحسابات الخاصّة. ولا تدّعي هذه المقالة الإضاءة على كل ما ورد في الكتاب، ولكن استوقفتني بصورة خاصّة محطات أساسية فيه، وأبرزها: السمات الملموسة للبيئة الجنوبية التي بدأت فيها مسيرة المؤلف السياسية؛ الفرضيات التي أملت تمييز مقدّمة الكتاب لركنين حزبيين قياديين محدّدين، هما فرج الله الحلو ونقولا شاوي؛ التنوّع التاريخي الشديد في القاعدة الاجتماعية والمهنية والمناطقية للحزب الشيوعي في بلد يطغى عليه الاستثمار السياسي في الهويات ما دون الوطنية؛ إشكالية العلاقة بين الثابت والمتحوّل في مقاربة المؤلف لأزمة الحزب وطرق معالجتها.

البدايات كانت في مدينة صور في أواسط الأربعينيات عندما تعرّف الكاتب في مستهل مسيرته على «المعلّم» رفلة أبو جمرا – صاحب محل للخياطة في المدينة – الذي شكّل أنذاك منارة للدعوة إلى المبادئ الشيوعية، فكراً وعملاً، في مدينته وأريافها القريبة والبعيدة. ثم تبع ذلك تأثّره الشديد بتجربة نسيبه الشهيد الدكتور حسين مروّة الذي ذهب إلى النجف في العشرينيات طالباً للعلوم الدينية وعاد منها في الأربعينيات ليخلع زيّ رجل الدين ويتحوّل إلى الفكر الماركسي حتى استشهاده عام 1987. ويتبدّى من فصول الكتاب أن حالة حسين مروّة لم تكن حالة معزولة، بل كانت أقرب إلى ظاهرة تكرّرت ما بين الأربعينيات حتى الستينيات وبالتحديد حتى تاريخ إنشاء المجلس الشيعي الأعلى الذي تولّى للمرّة الأولى بناء المؤسسة الدينية الشيعية و«ضبط شؤونها»، على غرار المؤسسات الدينية الأخرى الموغلة في قدمها. ويتبيّن من الكتاب أن هذه الظاهرة قد شملت عدداً من طلاب العلوم الدينية في النجف، العراقيين منهم واللبنانيين، الذين اتجهوا بدرجات متفاوتة نحو تبنّي أشكال من الفكر الماركسي والاشتراكي والإصلاحي، وكرّسوا الاجتهاد خارج منطق تأويل النصّ الديني الذي يتوسله الحكام كأداة لتأبيد سيطرتهم السياسية والاجتماعية والثقافية. ويشير الكاتب بشكل خاص في هذا الإطار إلى اللبناني الشيخ محمد شرارة والعراقي الشاعر محمد مهدي الجواهري. وربما تدفع تلك الظاهرة إلى الاستنتاج أن إمكانات التقاطع بين الأفكار الاشتراكية والأفكار المستمدّة من إسلام تنويري ووضعي كانت قائمة في البلدين إبّان سيطرة الحكم الملكي في العراق وتحالف الإقطاع في لبنان، بالنظر إلى استفحال مؤشرات التفارق الاجتماعي والحرمان والإقصاء في البلدين والانحسار النسبي لسلطة الدولة المركزية في الأرياف. غير أن هذا التقاطع ضعف نسبياً بعد وصول أطياف من البورجوازية الصغيرة المستبدّة إلى السلطة في العراق وإحكام سيطرتها المركزية العاتية على مجمل البلاد، ثم بخاصّة بعد تحوّل الطوائف إلى أحزاب شمولية مطلقة سواء في لبنان ما بعد الحرب الأهلية أو في عراق ما بعد الغزو الأميركي عام 2003، حيث أصبح الفكر الديني والطائفي السائد أداة للتوظيف السياسي بامتياز من قبل القوى السياسية المتنفّذة. وهذا ما يطرح أسئلة راهنة حول أيّ دور يمكن – بل يجب – أن يلعبه اليسار في تعاطيه مع هذه الوظيفة التي أثّرت في وعي الناس واستلبت وجدانهم وعزّزت الهويات الضيّقة، وذلك بغية إعادة كسبهم ليكونوا جزءاً لا يتجزّأ من كتلة شعبية وطنية جامعة تكافح من أجل التغيير السياسي والاجتماعي.

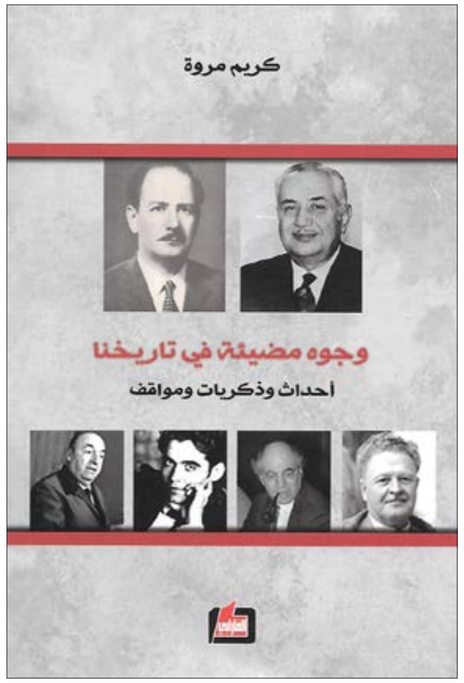

ويتناول الكاتب سمات قيادات حزبية لعبت دوراً مهمّاً في مسيرة الحزب الشيوعي، مستهلاً مقدمة كتابه بالحديث عن رمزين بارزين هما بالتحديد فرج الله الحلو ونقولا شاوي. وربما ارتبط اختيار هذين الرمزين بقناعة كريم مروّة أنهما، بالرغم مما يجمع أو يفرّق بينهما، قد جسّدا عامل حسم أساسياً في أدقّ منعطفين في تاريخ الحزب: تجسيد فرج الله الحلو لقوة المثال التاريخي في التمايز عن الموقف الرسمي للحزب من القضية القومية الأهم، أي القضية الفلسطينية؛ واضطلاع نقولا شاوي بالدور الأبرز في تحقيق عملية الفصل السلمي والمتوازن بين الحزبين الشيوعيين اللبناني والسوري عام 1964. ويخصّص الكاتب صفحات للحديث عن فرج الله الحلو القائد الفذّ والممتلك لطاقة غير محدودة على العمل والنقد البنّاء وتطوير قدرات العاملين معه، والذي رفض الموقف الحزبي من تقسيم فلسطين وخضع للإبعاد والتخوين من جانب القيادة البكداشية. وهذا ما أدّى إلى فرز في المواقف من هذه المسألة داخل الحزب الشيوعي، ودفع «اخوان عمر فاخوري» إلى التضامن مع فرج الله في أوائل الخمسينيات، وفي طليعتهم رئيف خوري ومعه هاشم الأمين واميلي فارس ابراهيم وقدري قلعجي وموريس كامل وغيرهم. وإذ يشير مروّة إلى اعتراف نقولا شاوي الصريح بأخطاء جسيمة وقع فيها بضغط مباشر مارسه عليه خالد بكداش يوم كان الحزبان الشيوعيان السوري واللبناني حزباً واحداً، إلا أنه يتوسّع في توصيف المزايا التي تمتّع بها هذا الرجل: امتلاكه ناصية العلم والثقافة ورجاحة العقل واللغات وتميّزه بنهمه للقراءة وتواضعه وتعفّفه عن المناصب، مع التشديد بشكل خاص على تفوّقه على غيره من القيادات الحزبية في مجال دفع الكوادر الوسطى إلى أعلى مواقع المسؤولية.

> يتناول الكاتب سمات قيادات حزبية أدّت دوراً مهمّاً في مسيرة الحزب الشيوعي

ويتوقف الكتاب في العديد من فقراته عند التنوّع الكبير في القاعدة البشرية للحزب. ويتكرّر حديث الكاتب عن الدور المهمّ الذي لعبه الأساتذة والمعلّمون الشيوعيون المنتشرون في المدن والأرياف، والذين كانت خاياهم الحزبية في الخمسينيات أقرب إلى حلقات ثقافية تبحث في قضايا العلم والأدب والشعر والسياسة والاجتماع، وليس فقط في القضايا المطلبية البحت. وكريم مروّة نفسه التحق أواسط الأربعينيات بسلك المعلّمين لمدّة عامين في شمسطار، وتوطّدت علاقته بالعديد منهم، لا سيما جعفر الأمين وبولس الحلو وعبد الحسين حامد وعادل الصباح وكثيرين غيرهم. وقد ساهم الحضور المميّز للحزب في صفوف المعلّمين في التمهيد – إلى جانب الحركة الطلابية الصاعدة - لمعركة تأسيس الجامعة اللبنانية، حيث قدّم الحزب أوّل شهيد في هذه المعركة، هو فرج الله حنين الذي استشهد تحت التعذيب بعد تظاهرة طلابية عام 1951. ويستعيد الكتاب جوانب مشرقة من تجارب ومساهمات كفاحية قام بها شيوعيون وأصدقاؤهم في العديد من الحقول، عبر وجوه مضيئة يتناول الكاتب بعضاً منهم (معتذراً عن كلّ سهو في ذكر الأسماء): في قيادة العمل النقابي، مصطفى العريس وسعد الدين مومنة وإلياس الهبر وإلياس البواري وعادل عبد الصمد وغيرهم؛ وفي المجال السياسي، جورج حاوي وخليل الدبس ويوسف خطار الحلو وفؤاد قازان وأرتين مادويان وفاروق معصراني وأحمد المير الأيوبي وعلي العبد وكريكور حمامجيان وسهيل بموت والشهداء سهيل طويلة وخليل نعّوس وميشال واكد، فضلاً عن أقدم المفقودين محي الدين حشيشو؛ وفي المجال الثقافي والاجتماعي، الشهيدان حسين مروة ومهدي عامل وسلام الراسي ومحمد دكروب وأنطون ثابت وأحمد علبي والدكتور شكرالله كرم ومير مسعد، والشعراء أسعد سعيد وميشال قهوجي وميشال سليمان، والمسرحيون الأوائل جلال خوري ويعقوب الشدراوي وأسامة العارف، فضلاً عن مناضلين بارزين من أمثال عبد المطلب الحسيني وميشال بدورة وحاتم سلمان... ومع أن قسماً أساسياً من هؤلاء قد ساهم بأشكال شتّى - وكلّ من موقعه النضالي والمهني - في دفق المقاومة الوطنية اللبنانية ضد المحتل الإسرائيلي، فإن لوحة الوجوه كان يمكن أن تكون أكثر اكتمالاً لو شملت وجوهاً بارزة شاركت بفعالية واستشهدت خلال قيادتها لعمليات هذه المقاومة. وإلى جانب الوجوه اللبنانية المضيئة، يفرد الكتاب مساحة لعدد من كبار المثقفين اليساريين العرب والأجانب الذين تعرّف عليهم مروّة عن كثب خلال مسيرته الطويلة، ومن ضمنهم عبد الرحمن منيف وسمير أمين وصادق جلال العظم وحنّا مينة وأبو سيف يوسف ومكسيم رودنسون وبابلو بيروتا وناظم حكمت.

أما إشكالية العلاقة بين الثابت والمتحوّل في مقاربة أزمة الحزب وطرق معالجتها، فإنها برزت تحت صيغ ومسمّيات ومناسبات عدّة في فقرات الكتاب: في وثائق المؤتمر الثاني للحزب عام 1968؛ وفي تقرير كريم مروة وجورج البطل عام 1988 بتكليف من جورج حاوي بمناسبة مرور 20 عاماً على المؤتمر الثاني، («الذي أهملته قيادة الحزب» بحسب مروّة)؛ وفي ورقة عام 1999 - حول مشروع للحوار في الحزب - تناول فيها الكاتب هوية الحزب الفكرية والاجتماعية وشكل التعاقد بين أعضائه واسم الحزب)؛ وفي مقال جورج البطل الذي نشرته مجلة الطريق عام 1994 واقترح فيه إلغاء صيغة الحزب الشيوعي السائدة منذ عشرينيات القرن الماضي، مع إعطاء الأولوية للتغيير الديمقراطي... وفي اختصار، انعكست خلاصة الطروحات المتعلقة بأزمة الحزب وطرق معالجتها في وثائق المؤتمر السادس (1992) التي تضمّنت الدعوة إلى «حزب مفتوح على التجديد، وعلى القضية الوطنية وقضية الحداثيين وقضية الحرية والتغيير الديمقراطي... حزب ديمقراطي حقيقي كبير للتغيير، أكثر طموحاً وأكثر واقعية وأكثر التصاقاً بحياة شعبنا وبلدنا»، مع التأكيد – تجنّباً للجمود الفكري - على جعل الفكر موضع نقاش دائم في ضوء تطور الشروط المادية التاريخية. وبحسب مروّة ناقشت هذه الوثائق مسألة تغيير اسم الحزب والعودة إلى «حزب الشعب» الذي تأسّس عام 1925، ولكن بعد نقاش مستفيض ارتأى المؤتمر الحفاظ على اسم الحزب صيانة لوحدته.

وإذا كان من استنتاج ختامي، فإن القضايا المطروحة في الوثائق المذكورة في كتاب كريم مروّة لا تزال من حيث الجوهر قائمة بشكل ساطع: هوية الحزب الفكرية، الموقف من قضية التغيير السياسي والاجتماعي في لبنان، الموقف من القضية القومية ومشاريع السيطرة الإمبريالية على المنطقة، مسألة التنظيم الحزبي والمواءمة بين المركزية والديمقراطية، والموقف من مسألة حرية الرأي والرأي الآخر وأشكال التعاقد داخل الحزب في زمن شبكات التواصل الاجتماعي... ولكن المستجدّ هو أن هذه القضايا تطرح راهناً في ظل تحوّلات بنيوية عميقة في المعطيات الدولية والعربية والداخلية: دولياً، ترسّخ أزمة النظام الرأسمالي وصيغه النيوليبرالية المتعاقبة خصوصاً في أوروبا، وصعود التيارات الشعبوية واليمينية المتطرفة في مقابل انحسار اليمين التقليدي واليسار وأحزاب الديمقراطية الاشتراكية، والعسكرة المتزايدة للعلاقات الدولية المتزامنة مع العودة إلى السياسات الحمائية وتزايد مؤشرات الحرب التجارية الكونية، واتجاه القطبية الدولية الأحادية تدريجياً نحو نظام من القطبية المتعدّدة... عربياً، انفجار دول المنطقة وتفتّتها تحت ضغط الصيغ المختلفة لمشروع الشرق الأوسط الجديد، وتشابك وتعاظم الضغوطات الغربية والإسرائيلية والرجعية لتصفية القضية الفلسطينية بشكل نهائي، واستنفار «الدول الكبرى الإقليمية» لملء الفراغ الناجم عن انهيار حركة التحرر العربية، وصعود ومن ثمّ انحسار التوظيف السياسي الغربي والإقليمي والعربي في الحركات الإسلامية المتطرّفة بعد تقويضها لانتفاضات «الربيع العربي» وحرفها عن أهدافها المشروعة، واستمرار أزمة البديل المتمثّل في الأحزاب الشيوعية وحركات اليسار العربي بالترافق مع صعود حركات مدنية وشعبية من خارجها... لبنانياً، تحوّل الطوائف إلى أحزاب شمولية مغلقة كتعبير موضوعي عن تزايد الانقسامات السياسية والهوياتية في المنطقة وارتدادات مشاريع التفتيت والتجزئة المصمّمة لها، واهتزاز نظام العمل المأجور ومنظومة الخدمات العامة والتقديمات الاجتماعية، والتساقط المتسارع للفئات الدنيا والمتوسطة من «الطبقة الوسطى» وسط تعاظم الإفقار والبطالة والهجرة في صفوفها كنتيجة لترسّخ النمط الاقتصادي الريعي، وتنامي الحركات المدنية – من خارج الأحزاب السياسية والحركات النقابية القائمة – وسط تزايد المشاريع الملتبسة للتوظيف السياسي في هذه الحركات، ناهيك عن خطر اقتراب البلد أكثر فأكثر من لحظة الانهيار الاقتصادي الوشيك...

في مثل هذه الظروف، لا يعود مجرّد الاتّفاق على توصيف الأزمة وتشخيص تداعياتها كافياً بذاته، بل الأهمّ هو اقتران هذا التشخيص بتحديد ما هو متاح من بدائل – واقعية وكامنة – ترتكز إلى حيثيات فكرية وسياسية واقتصادية واجتماعية ثاقبة ومستمدة في الآن ذاته من متغيّرات الواقع الملموس ومن منهج التحليل الاشتراكي العلمي. ومن خلال قراءتي لما ورد في الكتاب، أميل إلى القول إن كريم مروّة لا يسعه إلا أن يكون منسجماً ومتفقاً مع هذا الرأي. فالحلّ في جميع الأحوال - بالنسبة إلى حزب كالحزب الشيوعي اللبناني يمتلك هذا التاريخ من التضحيات ومن الثبات في المواقف المبدئية الأساسية - لن يكون بالانصياع للضغوطات والإغراءات المتنوّعة التي تحاول دفعه نحو التراجع عن نهجه الفكري المستقل، ولا بملاقاة الطروحات الليبرالية المتقدّمة تحت شعارات «فكر يومي» ملتبس ومن النوع «السهل والممتنع»، ولا بتعمية طبيعة الصراع في المنطقة أو تبويبه وفق تحليلات مكرورة. لكن هذا التمرس القيادي الراديكالي لم يؤثر في ورع الولاءات الزبائنية الأهلية «المُتديّنة» خصوصاً في أوساط المثقفين بينها ومنهم كثير من شيوعيي مرحلة العزّ السوفياتي للحزب. ولم يحل الفهم الثوري المزمن لأزمة النظام من دون ضمور الحزب داخل فئات العمال وأطرها النقابية وداخل فئات صغار الفلاحين والشباب المتخرجين ممن لم تتوافر لهم فرص التخرج بالكفاءات العلمية و/أو التقنية المطلوبة في أسواق العمل في لبنان كما في المهاجر المتاحة أمامهم، وأنّ توسع أنواع البطالة في صفوف هذه الفئات لا يُقربها بالضرورة من الخطاب الشيوعي الذي يهجس بمعاداته أرباب العمل بما يجعل الشباب أكثر ابتعاداً عن تحاليل الشيوعيين المُثقلة في دنياهم وأكثر اقتراباً من الإيمان بالعمل من أجل آخرتهم.

في تقديرنا أن ما نُشير إليه من ضمور تأثير الحزب في تعميق الوعي النضالي والنضالي في بيئات الحزب كما داخل تنظيمه لا يعود فقط إلى صعوبة فهم المهمشين لسوليبات أطراف التحالف المتحاصص داخل الحكم والاقتصاد عن تهميشهم بفعل تشريعاته لإدارة آليات السوق لتعود مردودات الأزمات، ومنها خاصة المالية والنقدية لأطرافه، بل هو ضمور يعود إلى مغالاة بعض قادة الحزب في اعتماد نهج التميّز الفكري المفرط عن طروحات القوى السياسية الأخرى بما يقود حكماً إلى الانعزال. نهج كان يُعتمد قبل قيادة الأمين العام الشهيد حاوي واستمر بعدها مستنداً إلى نهج الأممية الثالثة السوفياتية بعد الحرب العالمية الثانية. وكان حاوي هو الأكثر معاناة من ضيق هذا النهج وهو الأقدر على فهم ضرورة توطين وتكييف المادية التاريخية لتصبح أكثر ملاءمة في عملية تحليل الأوضاع الثقافية السياسية اللبنانية ومحدداتها الداخلية والخارجية.

وعندما عجز عن فرض تجاوز ضيق هذا النهج استقال من قيادة الحزب

* عضو المكتب السياسي للحزب الشيوعي اللبناني

حزب العمال والفلاحين على باب القرن الثاني
هواجس في أسئلة

أحمد بعلبكي *

ـ هل يخرج الحزب الشيوعي من الانفراد في العمل السياسي بعد أن صار الاقتصاد اللبناني «غير بعيد عن انهيار وشيك»، على حد خطاب أمينه العام حنا غريب في تظاهرة 16 كانون الأول 2018 التي شارك فيها عدد من غير المنتظمين حزبياً؟

ـ هل ينجح الأمين العام في الانتقال إلى رحاب التشارك في دعوته إلى «تشكيل كتلة شعبية ديموقراطية منظمة» بمعنى أن تضم شخصيات وأحزاباً إصلاحية غير طائفية إلى جانب شخصيات إصلاحية في أحزاب طائفية حاكمة تخطب في الإصلاح، وذلك تمثلاً بتشكيلة «الحركة الوطنية اللبنانية» التي رئسها طوال عشر سنوات قبل الحرب الأهلية وفي سنواتها الأولى الزعيم الشهيد كمال جنبلاط. تشكيلة تميّز في قيادتها إلى جانبه الأمين العام الخارق في الحزب الشيوعي الشهيد جورج حاوي وأمناء عامون آخرون في كل من «حركة القوميين العرب» و«الحزب السوري القومي الاجتماعي» بالإضافة إلى شخصيات إصلاحية وكوادر مناضلة لا يتجاوز عديد الملتزمين في كل منها العشرات؟

ـ هل النظام الطوائفي هو اليوم فعلاً «على وشك الانهيار»، وهل بلغت أزماته فعلاً حدود تهديد مصالح زعاماته الطائفيين ومرجعياتهم الخارجية المستفيدة من أدواره في محيطه الإقليمي، هذه المرجعيات التي ما تركته ينهار خلال حرب أهلية امتدت على عقد ونصف عقد. وشاركت بعدها في مدينة الطائف السعودية بإعادة تركيب نظامه؟

ـ هل يسهل على كوادر الحزب «المتمركسين» التحوّل عن فهم الماركسية السوفياتية الصياغة باعتبارها نهجاً يوصل إلى جنة مجتمع المساواة المثالي، وعن فهم حقيقة المادية التاريخية التي جاءت بها منذ منتصف القرن التاسع عشر لتكون عدة منهجية طرائقية «فلسفية» كونية لتحليل آليات وفهم صيرورات الصراعات والتحولات الداخلية والدولية المنعكسة داخل المجتمعات والأنظمة المختلفة وليست نظرية مُثبتة اختبارياً في علوم الطبيعة؟

ـ هل يقصد الأمين العام للحزب بمفهوم «الكتلة الشعبية الديموقراطية» تشكيلاً لتغيير النظام الاقتصادي والسياسي تغييراً ثورياً بعيداً عن مفهوم انقلاب يقوم به ضباط الجيش، الموزعون في لبنان على الطوائف، فيستحيل عليهم تقبل فكرة المشاركة فيه والمخاطرة بفقدان الرافعة المستقرة؟

ـ هل تدرك قيادة الحزب الشيوعي في مثل هذا الواقع الضرورة الوطنية لتخليها عن الخطاب الثوري للتغيير الذي لا تتوافر لتقبله الشروط التاريخية السياسية ـ الإقليمية والثقافية ـ الاجتماعية الشعبية؟ وهل يرى أعضاء القيادة أي نهج للتغيير الديموقراطي يمكن أن يُكتب له النجاح في لبنان الطوائفي اليوم عن غير نهج الإصلاح المتدرج المتصاعد الذي يسهل أن تتقبله وتُشارك في تحقيقه نُخب الفئات المتوسطة مع نُخب الفئات الشعبية على اختلاف ولاءاتها. هذه الفئات التي خاطبتها قيادات الحزب منذ حوالى القرن وخاطبها مثقفوه الثوريون في منشوراتهم بالإضافة إلى قيادات منظماته المناطقية. خطابات طلّت تعني في أوساط شبيبته المهمشة التصويب الثوروي على إسقاط النظام؟

نعم، لقد ارتفعت عالياً الشعارات الثوروية التي لا تخدم التغيير الديموقراطي في التظاهرة، إلى جانب لافتات طلائعها، رافعة بنود الورقة الاقتصادية «الإنقاذية» التي أعلنها الحزب في مواجهة الأزمة البنيوية للاقتصاد اللبناني المهدّد «بالانهيار» في تقدير أمينه العام. وبرز التباعد بين زمن مضمون الورقة، وبين زمن الشعارات الطبقية التي ما زال يصدح بها الشباب منذ ما قبل ستينيات القرن الماضي حول ما يُصيب «ثنائية الفلاحين والعمال» ممن أجبرهم مُناك تمركز رأسمالية الريع والأسواق السائبة في نطاق بيروت الكبرى على النزوح من الأرياف المهمشة إلى الضواحي المُريفة ليتحولوا باتجاه أبواب الهجرات القريبة والبعيدة أو قطاعات الأعمال الصغيرة اللانظامية التي تفتقد الحماية وتتعرض للمنافسة الإغراقية في أسواقها المحلية المفتوحة، تاركين لأصحاب العمل فرص الإفادة من رخص عروض العمالة الأجنبية، لا سيما السورية المهجّرة منها واللاجئة إلى جميع المناطق اللبنانية.

لطالما برز الفهم الثوري للأزمة البنيوية للنظام في خطابات القيادات المتعاقبة للحزب الشيوعي وفي تقارير مؤتمراته المتعاقبة. وقد تمرس في تشخيصها خبراء القيادة في المنطقة أو تأييدها صدقاً أو محاباة ظرفية في مخاطبة جماهيرها مزايدة ليس إلا على راديكالية طروحات الشيوعيين. وتكون بذلك قد ضللت الجماهير في دفاعها عن مصالحها وأبعدتها عن أفكار الشيوعيين التي تستفز السلطة الضارية وعن المشاركة في صفوف التظاهر ضد التحالف السلطوي.

إن انفتاح الشيوعيين على التشارك مع بعض النواب والشخصيات البعيدين عنهم الموالين اضطرارياً لأمراء طوائفهم يتطلب تواضعاً في لغة التواصل والتشارك في قيادة الشارع تبتعد عن إغراءات الخطاب الثوري المصوّب على إحراج ولاءاتهم. أخلاقيات المشاركة تحت شعارات إصلاحية غير مقتصرة على الحزب الشيوعي يمكن أن تقوي شوكة بعض النواب في كتلهم النيابية «الكرتونية»، حيث تُبتز أو تُذل غالبيتهم، ويمكن أن يشارك الأقل ارتهاناً لزعامات كتلهم في تظاهرات تمشي في صفوفها الأولى قيادات وشخصيات متعددة الانتماءات السياسية ومتنوعة المشارب.

لهذا نرى أن تفرّد قيادة الحزب بالدعوة للتظاهر يكون قد أعفى هذه الأطراف من واجبات مصداقيتها، وبخصوص على سبيل المثال اشتراكيون أو محرومون أو مؤمنون مجاهدون أو مرديون أو عونيون أو... ليس من مصالحهم المشاركة مع الحزب الشيوعي في الشارع وتحت شعارات وهتافات متطرفة، لأن همومهم تقتصر على موالاة زعامات كتلهم ليضمنوا تجديد انتخابهم وهم معفيون من العمل في خدمات ناخبيهم. وتكون قيادة الحزب الشيوعي في استبعاد التشارك معهم قد أغفتهم من حرج موالاتهم وبقيت على ميولها في التفرد بتمثيل المهمشين عاجزة عن التواصل معهم وهم على أبواب مكاتب الزعامات ونوابها يجددون ولاءاتهم للوصول إلى حاجاتهم الأولية من الإدارات الحكومية.

* كاتب لبناني

مودعاً أيطرح ما سماه «الحركة الديموقراطية اللبنانية» التي كان عليه أن يُقتل بعد تكثيف تحركه من أجلها تاركاً بعده نهج التمايز والانعزال خاصة منها:

1. تلك التي اعتمدتها الأحزاب الماركسية ـ اللينينية في التفكير المثالي المؤدلج بالمادية التاريخية المروج في العمل السياسي في أحزاب المجتمعات الطرفية. أدت المغالاة في تبني هذا النهج إلى تبعية هذه الأحزاب ومن بينها الحزب الشيوعي لتجعلها أقرب إلى المعصومية الدينية. فحالت هذه «المعصومية المتمركسة» دون الاجتهاد الثقافي لتوطين نهج التفكير المادي التاريخي ودون المحاجهة القائمة على تحليل أوضاع المجتمعات المتمثلة في تشكيلات تتعدد داخلها الأنظمة الاجتماعية ـ الثقافية التي تستغلها تيارات التديّن السياسي لاحتكار مواقع القرار. وحالت تبعية الأحزاب الشيوعية الطرفية الفقيرة التحليل من دون إبراز التناقضات المُعاشة داخل تشكيلة الأنظمة وبينها في المجتمع الواحد ودون نموّ فهمها وانفتاحها على ثقافة تقدمية تُعلل تجاوزها. فمع استقلالي لا بد منه لاستقطاب نخب الفئات المهمشة فيمكّنها من الوعي الملائم للمشاركة في إصلاح أوضاعها وبمستوى إمكاناتها النضالية.

2. غالباً ما يميل العاملون في قيادة الحزب الشيوعي إلى استباق المراحل والتعبئة التي تتجاوز قدرات الجماعات الشعبية المُضلّلة المُبعدة عن تحسُّس مظالمها الراهنة، فيميلون إلى استهوان التحريض الثوري و«المناداة بإسقاط النظام» في الوقت الذي تميل فيه الفئات الشعبية اليائسة إلى التكيّف الآمن واستهوان تسليم ولاءاتها لأمراء الطوائف وفقهائها مبتهلة أمام عروضهم اليومية المغرية دينياً ومادياً. ولطالما استفزت روح اليأس والتكيف لدى العوام طلائع الشيوعيين فاستهونوا بدورهم الانفعال السلبي في ردودهم على الثقافة الدينية في بيناتهم الطائفية الضيقة مُعرضين عن فروض تديّنها على سبيل المثال وعن مقدساتها فيعود أصحاب هذه الثقافة لينفعلوا بدورهم أيضاً على قصور الحزب الشيوعي لناحية مرور نحو قرن على تأسيسه من دون تمكنه من تحقيق الأحلام التي يعد بها.

3. يعود الضمور النضالي للحزب وتأثيره السياسي في تعبئة وتحريك منظماته بعد تحول التنظيم الحزبي إلى كيان اجتماعي سياسي شبيه بكيان الأقلية الاثنية أو الدينية فتقتصر استدامة نظاميته في قاعدة هرمه على:

ـ الإيمان داخل القواعد بتميزها التقلسفي داخل بيئاتها وبتميز سلوكياتها المتفلتة من التقاليد «الرجعية» ومن فروض الحرم الديني والأخلاقي داخل العلاقات الأسرية والأهلية.

ـ مدى الكاريزما الشخصية لدى قياداته العليا والمناطقية، ومدى مواصلتهم الخطابة الثورية ومدى علوها على المنصات اللبنانية خصوصاً في حال كانت الظروف الاستثنائية هي التي تدخلت في وصول القائد الخطيب إلى موقع القيادة، كما الحال غالباً حيث يفرض توافق الضرورة والظرف توصيل القائد.

ومن الشائع في لبنان أن اللقب الذي يحوزه قائد ما في الحكم أو الحزب، أي حزب، يحفظه الناس له ما يفرض عليه أن يكون على قدر مقامه ليُكرّم اجتماعياً بالجلوس في الصفوف الأولى في القاعات والتظاهرات ولو بعد خروجه من موقعه القيادي.

يُضاف إلى ذلك أن القيادة في الحزب الشيوعي تساهم في تكريس شهرتها داخل هرمية الحزب معتمدة على إخلاص ولاءات القيادات الوسطى المؤثرة غالباً في خيارات وأصوات المنظمات المناطقية والقطاعية. ولم يكتف أحد القادة في ترسيخ حضوره على ولاء القيادات الوسطية عندما اكتشف أهمية دوره داخل الحزب بأنها ترتبط بأهمية الدور الذي ترغب به مرجعيات إقليمية وخارجية. إن مثل هذا الدور ما كان يمكن أن يصل إليه في ظروف الأهلية ـ الإقليمية غير الأمين العام الشهيد جورج حاوي بمعزل عن رفاقه في المكتب السياسي، علماً أن مثل هذا المُعطى في تكبير الموقع والدور القيادي في أي حزب لبناني، يمينياً أو يسارياً، ينطبق أيضاً على موقع مستوى حضور رئيس الدولة في لبنان. فالسلطة في لبنان كانت وتبقى قائمة على دعم سياسي و/أو مالي خارجي لأطرافها في الحكم اللبناني.

أخيراً إن مستوى ثورية الخطاب لدى بعض القادة في الحزب الشيوعي يرتفع أحياناً تعويضاً عما تتلمسه من انخفاض ميول قيادات الأحزاب الطائفية والنواب والشخصيات المؤثرة إلى ضرورة الانفتاح عليها واستقبالها، علماً أن هذه القيادات يمكن أن تلتقي مع الشيوعيين لو جزئياً في الطروحات الإصلاحية التي يعلنونها، فتضطر إلى تأييدها صدقاً أو محاباة ظرفية في مخاطبة جماهيرها مزايدة ليس إلا على راديكالية طروحات الشيوعيين. وتكون بذلك قد ضللت الجماهير في دفاعها عن مصالحها وأبعدتها عن أفكار الشيوعيين التي تستفز السلطة الضارية وعن المشاركة في صفوف التظاهر ضد التحالف السلطوي.

إن انفتاح الشيوعيين على التشارك مع بعض النواب والشخصيات البعيدين عنهم الموالين اضطرارياً لأمراء طوائفهم يتطلب تواضعاً في لغة التواصل والتشارك في قيادة الشارع تبتعد عن إغراءات الخطاب الثوري المصوّب على إحراج ولاءاتهم. أخلاقيات المشاركة تحت شعارات إصلاحية غير مقتصرة على الحزب الشيوعي يمكن أن تقوي شوكة بعض النواب في كتلهم النيابية «الكرتونية»، حيث تُبتز أو تُذل غالبيتهم، ويمكن أن يشارك الأقل ارتهاناً لزعامات كتلهم في تظاهرات تمشي في صفوفها الأولى قيادات وشخصيات متعددة الانتماءات السياسية ومتنوعة المشارب.

لهذا نرى أن تفرّد قيادة الحزب بالدعوة للتظاهر يكون قد أعفى هذه الأطراف من واجبات مصداقيتها، وبخصوص على سبيل المثال اشتراكيون أو محرومون أو مؤمنون مجاهدون أو مرديون أو عونيون أو... ليس من مصالحهم المشاركة مع الحزب الشيوعي في الشارع وتحت شعارات وهتافات متطرفة، لأن همومهم تقتصر على موالاة زعامات كتلهم ليضمنوا تجديد انتخابهم وهم معفيون من العمل في خدمات ناخبيهم. وتكون قيادة الحزب الشيوعي في استبعاد التشارك معهم قد أغفتهم من حرج موالاتهم وبقيت على ميولها في التفرد بتمثيل المهمشين عاجزة عن التواصل معهم وهم على أبواب مكاتب الزعامات ونوابها يجددون ولاءاتهم للوصول إلى حاجاتهم الأولية من الإدارات الحكومية.

* كاتب لبناني